الفصل التاسع

القاهرة.. ظلال من مقدونيا

تتميز القاهرة عن بقية مدن أفريقية (وعن سائر مدن آسيا بالنظرة ذاتها) بأنها ظلت منذ مطالع القرن التاسع عشر عاصمة قطر، أيًّا كان هو، فإنه متقارب من الدولة الحديثة. وليس من قبيل الإطراء خلعنا هذا الوصف عليها، فالدولة الحديثة تجمع بين ما هو طيب وما هو غير طيب. يكفي القاهرة أنها تضم ٣٠ محكمة بها ٦٥٠ قاضيًا ومستشاراً و٣ سجون بها ٨ آلاف من النزلاء و٦٥ مستشفى بها ١٣,٠٣٢ سريراً وما يزيد عن ١,١٠٠ من شرطة المرور، ليقال إن هذا كله لا يعكس أنها عاصمة فحسب، بل عاصمة تأخذ بالنظم الحديثة،

وهى أيضاً فريدة فى أنها تمثل مجتمعاً شرقيًا فى صراع دائم مثمر مع الغرب، لا تنازعها فى ذلك مدينة استانبول (وهى مدينة لابد أن يقال عنها إنها غربية فهى مقامة فى أوروبا) فإن القسطنطينية كما عرفها القرن التاسع عشر قد شهدت هذا الصراع ذاته ولكنه انتهى بالانسحاب، فقد نقل كمال أتاتورك عاصمته الجديدة إلى بلد صغير فى قلب الأناضول، ولا أحد فى مصر (اللهم إلا فى شهر أغسطس حين تصبح الإسكندرية بمثابة العاصمة الثانية) يتبادر إلى ذهنه التخلى عن القاهرة.

وعلى مدى قرن ونصف - ما بين نابليون وجمال عبد الناصر - تولت حكم مصر سلالة أجنبية واحدة بلغ من تتابع توارثها أن أصبح يطلق عليها - تفخيماً لها - كالشأن مع بيوت الملك العريقة وفى التاريخ للعهد الفرعونى - اسم «الأسرة الحاكمة» ومنشئ خطوط هذه السلالة رجل مسلم من مدينة قولة فى مقدونيا بشمال اليونان، وكذلك إلى مقدونيا ينتسب منشئ الإسكندرية العاصمة المتلألئة لمصر البطالسة، وبعد أن انحدر حالها

وانكمشت وأصبحت قرية صيادين لا يزيد عدد سكانها عن خمسة آلاف، أعاد إليها محمد على - المنتسب إلى مقدونيا أيضًا - ازدهارها، ولكنه اتخذ من القاهرة عاصمة لملكه. وكان حين مجيئه إلى مصر من أتباع السلطان العثمانى، وبتكليف منه لصد زحف نابوليون، ولكنه قلب تبعيته إلى نظام حكم مبتدع فريد إذ أصبح يخص نابوليون بإعجابه الشديد، وتعاون أسلوب الثورة الفرنسية وأسلوب حكام الأقاليم المتخلفة فى تحطيم المماليك فى مجزرة وحشية انقسم امتدادها إلى مرحلتين، الأولى تولاها نابوليون بالقرب من قرية امبابة (التى اندمجت فى القاهرة الكبرى اليوم وبها مسرح البالون) فقد أحاطت جنوده من حملة البنادق بالأمراء الشجعان الذين حكموا مصر لستة قرون، وفر من نجا من المعركة الى صعيد مصر والسودان، انتظارًا - هكذا ظنوا - لعودتهم إلى مناصبهم وأملاكهم يوم يرحل نابوليون إلى باريس. ولكن محمد على - وهو فى بعض الاعتبار آخر المماليك وأنجحهم - دعا بقيتهم إلى حفل فى القلعة وفتك بهم هناك. ونستطيع اليوم أن نشهد موقع هذه

المذبحة، إنه الممر الضيق المؤدى من القلعة إلى باب العزب. وكانت نجاة واحد منهم واسمه حسن بك من المواضيع التي هام بها المصورون فى القرن التاسع عشر فرسموه، وفقًا لأسطورة شائعة - وهو يقفز بجواده من شرفة القلعة هاويا إلى الأرض. ولكن الحقيقة هى على خلاف الأسطورة، وإن كان قد نجا فبفضل مرض أقعده عن حضور الحفل. واستمر القتل أيضًا فى المماليك الذين كانوا متفرقين فى أرجاء مصر.. فمن هم هؤلاء المماليك؟

إنهم فى الأصل رقيق أبيض من شراء حكام مصر ليتولوا حراستهم. وكما حدث فى الإمبراطورية الرومانية من تحول قادة الجند عن حراسة الإمبراطور إلى التسلط عليه يخلعونه متى شاءوا ويقيمون من شاءوا بدله، فإن هذا الحرس من المماليك المرتزقة بسط سيطرته على حكام مصر. وقد جاء هؤلاء المماليك من الأطراف الشمالية الشرقية لدار الإسلام وبخاصة من القوقاز وتركستان، وكانوا يتصفون بالهمة والحماس، وأحياناً بالتقى والورع، وأحيانًا بالانتهازية الكلبية، ولكن محال

وصفهم بأنهم مصريون. ورأس المماليك يصبح هو السلطان، منصب قد ينتقل بالوراثة من أب الى ابن، ولكن كان من المحبب لهم فى المعتاد أن يتبنى السلطان مملوكًا أثيرا عنده، وكان هذا المملوك إما يقتل سيده أو يتآمر له ويحل محله حين يقتله مملوك غيره. ويمكن القول بأن نظام المماليك يرجع مبدأه إلى عهد صلاح الدين وهو كردى من أبناء القرن الثانى عشر، فإنه أقام هو وخلفاؤه نظام حكم أشبه ما يكون بنظام الحكم الاقطاعى فى الغرب، ولو أن فرق الجنس بين المماليك ورعاياهم من الفلاحين الصابرين سكان وادى النيل قد جعل هؤلاء المماليك أقل من بارونات القرون الوسطى فى فرنسا وانجلترا اهتمامًا بالحقوق الديمقراطية، وإن أخطأنا عمدًا فى حق التاريخ فأجزنا استخدام وصف الديمقراطية لعصر سابق لعصرها. ولما انهزمت مصر أمام الأتراك العثمانيين سنة ١٥١٧ وشنق طومان باى آخر سلاطينها على باب زويلة قام الظن لبرهة بأن دولة المماليك قد دالت، على يد غزاة لا يقلون عتوًّا عن التيودور فى غزوهم لانجلترا، ولكن أعباء هذه الإمبراطورية التى اتسعت

فجأة ثقلت على الأتراك فرأوا من الأصلح أن تكون مصر بقرة يتولى المماليك حلب ضرعها لهم فبقيت هذه الزمرة متربعة على مقعد الحكم إلى نهاية القرن الثامن عشر وإن بقى لموظف تركى سيادة اسمية عليها.

ومن تركة المماليك التى أورثوها للقاهرة شيئان: هذه العيون الزرق والخضر فى بعض الوجوه السمر، وهذا الحشد من الصروح الفخمة: مدارس ومستشفيات وفوق هذه وتلك مساجد بقبابها التى تتميز بها مقامة فوق قبورهم، كأنما انتقل إليهم بالعدوى، من روح مصر الفرعونية هذا الحرص المستهام بضريح لائق بالرقدة الأبدية، وهكذا أضفى الرواد على عاصمة دولة انكمش عدد سكانها من ٨ إلى ٢ مليون نسمة، فالقاهرة التى انتقلت من يدهم إلى يد نابليون وإلى يد مريده المقدونى لم تكن إلا نتفة صغيرة من قاهرة اليوم. ويرجع الفضل فى اتساع هذه المدينة الى أسرة محمد على، وإن تسعة أعشار رقعتها لم تعرف العمار إلا بعد انقضاء عهد المماليك.

ولم يشعر محمد علي في قرارة نفسه أنه مصري قط. ولو أن ابنه إبراهيم - هذا الجندي الصارم - كان يحس أنه قريب إلى أبناء العرب سمر الوجوه شأنه في ذلك شأن لورنس إذا راعينا واجب تبديل زمن بزمن. وكان محمد علي يتكلم التركية لا العربية، ويعد نفسه عثمانيًا لا مصريًا، ولا حتى من مقدونيا. وكان له - كما للملك عبد العزيز آل سعود - وفرة من الأولاد، ولكنه كان في نفس الوقت من المعجبين بالمدنية الغربية الحديثة وأراد أن يقتبس كل تطبيقاتها فأنشأ الآلات البخارية وبنى الفنارات. والطابع الذي خلفه على مدينة القاهرة يستمد إشعاعه من القلعة، إذ شيد فيها قصره - قصر الجوهرة - بالقرب من باب العزب حيث تدوى صرخات أشباح المماليك الذين ذاقوا الموت ذبحًا. وبجانب من قصر الجوهرة مسجده المقام على قبره، وهذا المسجد لا يعد في نظر عشاق العمارة الإسلامية في القاهرة من أفضل نماذجها، شأن دار الأوبرا في باريس بين مثيلاتها. وبرغم أنه من طراز مستلهم من تركيا لا من مصر فإنه - في عاصمة مصر - يطغى على أفقها الشرقي.

وأوصل محمد على الاسكندرية بالقاهرة بحفره ترعة المحمودية، وبنى القناطر الخيرية عند عنق الدلتا ولكنها - كالشأن فى أغلب منجزاته - كانت مهتزة الدعائم، فلم يتم لها رسوخ إلا فى التسعينات من القرن الماضى. وفى قصر الجوهرة لوحة تصور مجدد مصر وهو قاعد، كما نجده قاعدًا فى الصورة القلمية التى رسمها له روبرت كيرزون. قال:

«وجدنا الباشا حين لقيته شيخًا عفيًّا متين البنيان، عريض الكتفين، عريض صفحة الوجه، واسع انفتاح المنخرين، تضفى عليه نظرته الحادة الوثابة، هيئة أسد أغبر هرم. تحدثنا ثلاثة أرباع الساعة على مدى إمكان مد السكة الحديدية بطول برزخ السويس. وكان هذا المشروع أكبر هم يشغل باله حينئذ. ولكن الحادثة التى سجلت هذا اللقاء بقوة فى ذاكرتى والتى دهشت لها لأنها تمثل عادات تختلف عن عاداتنا كل الاختلاف لم تكن فى ذاتها إلا حادثة هينة، فقد رأيت الباشا يطلب منديله فأخذ يبحث عنه فيما حوله، ثم ينقب فى جيوبه، فلم

يجده. وكان أثناء بحثه لا يكف عن التعبير عن دهشته وحيرته بهتافات مختلفة، استجاب لها آخر الأمر خادم سعى إليه من أقصى الحجرة وقال له «ابحث عنه فى جيبك الآخر» فأجابه الباشا «فعلت فلم أجد فيه منديلى» رد عليه الخادم «إذن عد إلى البحث عنه فى جيبك الأول» فلما أجابه الباشا «ليس عندى منديل» أو بكلام من هذا القبيل، كان الرد السريع الذى أتى إليه من الخادم «بل عندك منديلك» وتكرر القول والرد «ليس عندى منديل» - «بل عندك منديلك» وانتهى الأمر بأن تقدم هذا الخادم إلى الباشا وأخذ ينقب فى جيبى سترته دون أن يجد المنديل، فأخذت يده تدور حول خصر الباشا يتحسس المنديل فلعله قد طواه طرف الشال الذى يتلفع به ولكن بلا جدوى، حينئذ أمسك الخادم بسيده مولاه وأماله إلى اليمين فوق الأريكة ونظر تحته ليرى ما إذا كان قد قعد على منديله، ثم عدله وأماله من جديد إلى اليسار، وظل الباشا طوال هذه المناورة العجيبة على أتم ما يقدر عليه من هدوء واستسلام، ثم دس الخادم ساعده إلى الكوع فى أحد جيوب سرواله

الكبير المنتفخ وأخرج علبة نشوق ومسبحة وأشياء أخرى صفها على الأريكة، ولكنه لم يجد المنديل، فانتقل ساعده إلى الجيب الآخر ومده إلى عمق مهول حتى أخرج من قاع الجيب المنديل المفقود، وفى حركة ملؤها التوقير والتجلة دفعه بقوة إلى يد الباشا ثم تراجع إلى الطرف القصى من الحجرة حيث كان».

هذا وصف جدير بالاستعادة ونحن نستعرض ما كان لهذا الرجل العظيم من أثر ووقع على العاصمة التى اغتصبها، وكذلك ونحن نستمع إلى الهجوم عليه من المنادين بالوطنية الحديثة. قد يكون محمد على نهازًا للفرص، يمضى الى غاياته بلا رحمة، وقد تكون اصلاحاته سابقة لأوانها، ضحضاحة لأنها انبعثت من دوافع باطلة - إذ كان يطمع ان يجعل من مصر قاعدة لإمبراطورية يقيمها لشخص - ولكن رجلاً له مثل هذا المسلك السمح وهذا التحرر من مراسم المنصب الرفيع خليق بأن يستجيب المصريون لسحره، ومثل هذه الخلال لا تزال إلى اليوم فى جميع البلاد العربية هى التى تمهد

لحكامها طريق النجاح.

لم يرث أحد من ابنائه عبقريته وانتماءه للشرق وقد وجد اسمه اسوا تخليد له فى القاهرة «فإن اسماعيل هو الذى أطلق اسم محمد على على شارع شقه فيها بتأثير من ذوقه الفرنسى، فجاء أشد شوراع العاصمة دمامة واجتراء فإنه هتك احشاء حى من أجمل أحياء القاهرة، وهدم قصورًا وأزال حدائق وقوض جانبًا من مسجد عتيق لا لشىء إلا لكى يسلم للشارع تمام امتداده على خط مستقيم، وهذا حرص سخيف عديم الذوق» هكذا قال ستانلى لين بول. ولكن ما يشفع لهذه الفعلة النكراء من إسماعيل هذه البواكى التى تجعله شبيهًا بشارع ريفولى فى باريس. ولما جاء عصر فاروق حفيد اسماعيل أصبح الطابع الشرقى لشارع محمد على ينم على التخلف وانقطع انتظام البواكى، فاختفى أكثرها واصبح جريحًا متناثرًا، وأصبح - باسمه الجديد شارع القلعة - من أقبح الشوارع فى مدينة جميلة.

وحين ضاق أهل القاهرة ذرعًا لخضوعهم لحكم سلالة

محمد على. كان مطلب ثأرهم عند قصورهم، فقصر عابدين - وهو من طراز قصر بكنجهام وصورة مصغرة منه - يطل على ميدان كبير. هنا كان لتوفيق بن اسماعيل نقاش مثير مع الضابط عرابى - مثيل عبدالناصر فى الثمانينات من القرن الماضى. أصبح الآن يسمى بميدان الجمهورية وينقلب إلى سرادق مكبب مهول تنصت فيه الجماهير الغفيرة إلى الخطب احتفالاً بعيد الثورة فى شهر يوليو من كل عام، أما القصر ذاته فقسم منه تشغله إحدى الوزارات «وزارة الاصلاح الزراعى» وقسم آخر يحتله ناد للشباب، وقسم أفرد ليكون متحفاً. وقد بيع أغلب أثاثه الفاخر، وما بقى منه ينم عن ذوق اسماعيل الذى كانت مخصصاته من خزانة الدولة تفوق مخصصات الملكة فيكتوريا، ولا تزال معلقة على الجدران لوحات زيتية تمثل زوجات إسماعيل مرتديات ملابس عقيلات طبقة السادة فى أكسفورد، وبقيت الأدوية فى الحمام الملكى كما تركها فاروق عند تنازله عن العرش، وبقى الميزان كذلك، ذكرى حزينة لبدن يود أن يذوى كما ذوت سمعة صاحبه. أما القصر

الـذى احتفل فيـه اسماعيـل بالامبـراطورة الفـرنسيـة ايوجنى فكان لمدة طويلة مسكنا فى المدينة لأسرة مسيحية من الصعيـد، هى أسـرة لـطف الله، وبقى القصـر بقـدر ما كما كان، وأن أقيمت على أرضه شاليهات مترفة.

وقصر الامير محمد على (ولى العهد الى أن رزق بولد من زوجته الثانية ناريمان صادق قبـل خلعه بقليـل) قائم الى اليـوم بجزيـرة الروضـة، من وراء أسواره العـريضة دروب يحفهـا نبات الصبـار أو تظللهـا أشجار البـانيان، لا ينساها من يجـوس خلالهـا، تصلح أن تكون مسـرحا لفيلم سيريالى أن صنعت هذه الافلام فى مصر. وبالقصـر مجمـوعة ضخمـة من صور فـوتوغـرافيـة لملوك الـدول ورؤسائها عليها توقيع أصحابها، وفقا للمـراسم. وينقلب طـابع القصـر المستلهم من ذوق دمشق الى طـابـع عهـد ادوارد فى إنجلترا إذا انتقلنا إلى الحمـام ورأينا من خـزفه زخارف على هيئـة أزهار. أقـام الأمير عـلى أرض قصره متحفه وهو خير مكان تستعـرض فيه السجـاد الشرقى، ولوحات الملوك ورؤسـاء الدول، والمصـاحف المزخـرفة، وأشياء أخرى ثمينة من جمع أمير شرقى مطلق السلطان.

وهذه الفقرة التى كتبتها لها صدقها، ولكن السرعة التى يتصف بها تغيير الاحوال فى الشرق الجديد ما لبثت أن جعلت كلامى محمولا على الماضى، فقد علقت على باب القصر لافتة بأنوار النيون تعلن أنه هو أيضا أصبح فندقا باسم «عمر الخيام المنيل» وقطعت الشاليهات امتداد حدائقه ولم يعد فى الإمكان صنع فيلم سيريالى كالذى تحدثت عنه فإن نبات الصبار قد اذبله غشيان السياح لدروبه وان كنا - أنا وانت - لم نهضم بعد نصيبنا من متعته. وهكذا انقشع السحر على رنين العملة الصعبة.

ولن تجد فى القاهرة من يغضب لتراث القرن التاسع عشر وهو يتعرض للزراية به والترحيب بتقويضه، وهذا حال يدعو للأسف ولو أنه مفهوم. فإذا كان هذا التراث يعد فى نظر الانجليز فى بلادهم منحدرا عن عصر الملكة فيكتوريا عصر القوة السيادة، فإنه فى نظر المصريين ينحدر عن عصر إسماعيل وتوفيق عصر الضعة والمهانة. أما ابراهيم فلأنه قائد عظيم فهو لا يزال يحتفظ بنصيب

من الاجلال كما يحتفظ بتمثال له أمام دار الأوبرا نراه فيه فارسا مهيبا ممتطيا جواده، على حين أن سليمان باشا، هذا الفرنسى الذى اعتنق الاسلام وأصبح معروفا - إلى جانب ما يعرف عنه - بأنه أيضا جد نازلى أم فاروق فقد استمر تمثاله - الذى يمثله بسراويله الواسعة وبطربوشه - قائما حتى سنة ١٩٤٦ ثم أزيل من الميدان القريب من محل جروبى حيث كان يعطى بعض ظهره للسيدات البدينات المندفعات صوب الشيكولاته، ومن حل محله؟ تمثال باهت الشبه بطلعت حرب مؤسس بنك مصر.

والذين يهيم ذوقهم بعطر الماضى الحديث هيهات أن يجدوا لهم غنيمة تفوق غنيمة زيارتهم لمتحف السكك الحديدية بالقاهرة، ما دام باقيًا. أنه منزو بالقرب من محطة باب الحديد ويضم ثروة كبيرة من النماذج والصور الفوتوغرافية، تشهد باستباق مصر لدخول عصر السكك الحديدية فى وقت مبكر. وقد وصفت لك من سابق محمد على وهو يباحث كيرزون فى مد خط حديدى، وقد تم مد خط بين القاهرة والاسكندرية سنة

١٨٥٦. ويحتفظ المتحف فى أحد مخازنه الجانبية بالقطار المسمى «بالكشك» الذى كان مخصصا لسعيد باشا والى مصر الذى أعطى الإذن بشق قناة السويس، أنه بين القطارات عديل سيارة رولزرويس بين السيارات وهو من انتاج مصانع ستيفنسون.. أول المصانع فى إنشاء السكك الحديدية إطلاقا - وتم تسليمه سنة ١٨٢٦. وقد طلى القطار من الخارج بألوان زاهية جعلته براقا كقطع الكريستال البوهيمى إرضاء للذوق الشرقى، وفرش داخله بالطنافس فامتزجت مع الآلات الملمعة امتزاجا غريبا. وكان سعيد باشا - الذى كان بين أفراد أسرته الذين لا تنقصهم البدانة أكثرهم امتلاء - مشهورا بأنه كان يقود هذه القاطرة بنفسه فى زياراته لاقطاعات أقاربه وأصدقائه.

أما عمران القاهرة فالفضل الأكبر فيه راجع إلى إسماعيل. تدين له إحياؤها السكنية الجديدة بنصيبها من رواد المعمار الإيطالى، وأحيانا بنصيبها من رشاقته أيضًا. من أجل إسماعيل جرى إطلاق اسمه على هذا الميدان الواسع الذى كان فيما مضى تشينه الثكنات البريطانية

فتحول إلى منظر فخم بإقامة فندق الهيلتون مكانها. ولقد أقيم فى سرة هذا الميدان قاعدة تمثال حمراء اللون استمرت خاوية ولن يعلو قمتها تمثال إسماعيل وبذلته الرسمية، وتبدل اسم الميدان من ميدان الإسماعيلية إلى ميدان التحرير.

أما دار الأوبرا فهى إلى اليوم درة منجزات إسماعيل، بنيت على عجل من الخشب والجص لتلحق إفتتاح قناة السويس، ولكن تعجل الحاكم الشرقى لم يجد مجاراة له عند الملحن المكلف بإعداد أوبرا عايدة لليلة الافتتاح، فلم يستطع فردى إتمامها، ومثلت بدلها أوبرا «ريجوليتو». وقد حضرت يوم ٢٨ ابريل سنة ١٨٦٤ أداء بديعًا لأوبرا «لاترافياتا» مترجمة إلى العربية فقدم إبراهيم رفعت نصًا بلغ القمة فى قابليته للغناء، ولكن السيدات اللاتى استضافتهن فيوليتا فى صالونها جئن من عصر أشد ديمقراطية من عصر إسماعيل الذى لا يزال الحرف اللاتينى الأول من اسمه محور الزخارف المعدنية المذهبة على مدخل دار الأوبرا.